الفصل الثانى

زهير بن أبى سلمى ..

حياته وتحولاته بين العلا ويثرب

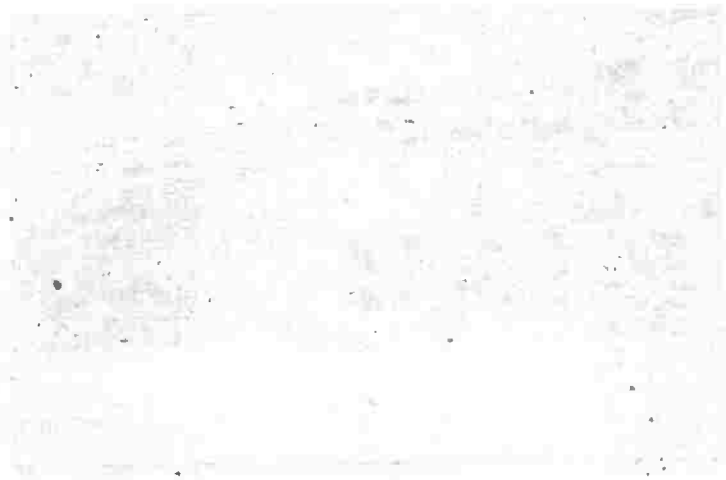

وُلدَ فى بيت شِعر..

حين أشـرقت الشـمس على ساعاته الأولى، كان أبوه ربيعة بن رباح المزنى، قد مات منذ شهور فى منازل أخواله الذين أغار عليهم فى نفر من أصحابه الذين نفروا عنه وتركوه وحيداً فألمَّ به الأخوال وبقى عندهم حتى مات من آثار جراحه.. وهو بعد فى مقتبل العمر..

حين أشرقت شمس يومه الأول كانت أمه محاطة بابنتها سلمى والخنساء (وهى غير الشاعرة المعروفة) فلما نظرن فى وجهه الصبوح سَمينه زهيراً وظل فى حنان أمه قليلاً حتى تزوجها أوس بن حجر، فكفله - وأختيه - خاله بُشامة بن الغدير.

كان ذلك سـنة ٥٢٠ من الميلاد على وجه التقريب، وكان يعيش فى منازل بنى عبدالله بن غطفان وأخواله من بنى مُرة من الذبيانيين، وكان خاله بشـامة شـاعراً فحلاً وأحد وجوه قومه منعةً وثراء..

قال ابن سـلاّم الجمحى: «وكان بشـامة كثير المال وكان ممن فقأ عين بعير فى الجاهلية، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فحلها»..

وكانت الأحوال فيما حول الفتى زهير مضطربة، فالاقتتال والتناحر بين القبائل يسـتّعر بشـكل يومى، حيث تفتحت عيناه على رؤية القتلى والدماء، فكره حمل السـيف على رغم أنه مكره على ذلك لأن من أبجديات تعليم الفتى، أن يحسـن استعمال أدوات القتال وأن يتعلم ركوب الخيل و «لعبة» الكر والفر..

ولكنه وِلدَ فى بيت شِعر..

علّمه خاله بشامة أسرار الشعر وآفاق اللغة، فبدأت مخيلته تلتهب.. لكنه التهاب المعانى وتراكيب الصور..

كانت منازل بنى مرة وبنى غطفان فى منطقة الحاجر (الحجر) – الواقعة جنوب الرياض الآن – وتقع أيضاً شرقى المدينة المنورة.. المدينة التى آثرتُ الانطلاق منها لكون زهير عاش فيما بينها وبين أراضى عبس الواقعة فى أطراف بلاد القصيم، ولكونه أيضاً أكثر زيارتها وكان اسمها «يثرب» (نسبة إلى يثرب بن قانية بن مهلابيل بن رام بن عبس بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ويقال إن يثرباً كان أول من سكن هذه المدينة)..

كما أن زهيراً عاش فيها أيامه الأخيرة وهو ما يؤكده وجود ابنه كعب وبجير اللذين أدركا الإسلام، وكانت لكعب قصيدته الشهيرة فى مدح الرسول الكريم.

... إذن المدينة المنورة منطلقنا..

وعلى هذا، ركبت راحلتى «المعاصرة» فى اتجاه شرق المدينة وهو الطريق المؤدى إلى الحرة الشرقية، مروراً بالصلصلة وخيبر التى منها انطلقت إلى مدينة العلا التى تحتوى حدودها على منطقتىْ مدائن صالح والحجر، أو الحاجر...

بعد ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً – بالتقريب – وفى تمام الرابعة عصراً وصلت إلى المكان ولكن مرافقى سائق السيارة قال: لابد من الحصول على إذن من إمارة المدينة، ولكن وقت «دوام» العمل قد فات وبالتالى لم نستطع «الاقتراب أو التصوير» فمكان الحجر بالفعل تقوم عليه الحراسة، والتى فشلت فى إقناع أىٍّ من أفرادها بدخول هذه القرية الحجرية وتصوير «رفاتها» المكانى، وكنت أحمل أوراقاً ثبوتية بالمهمة.

إذن توقفت الكاميرا فى يدى بلا حول ولا قوة، لكننا ما إن غادرنا المكان بقليل حتى قمت بتصوير جوانب من هذه البادية.. التى من المؤكد أن زهيراً مارس فيها شقاوة الطفولة وألعاب الفتوة..

ثم عزيت نفسى بأنه لم يمكث فيها طويلاً.. هذه الدور المبنية من الحجر والتى لا تختلف فى بعضها عن كثير من القرى «المعاصرة» لزمانه وزماننا معاً، بعيداً

– بالطبع – عن الأشكال المعمارية «المختزلة» التى نعيش فيها أو «تعيش» فينا..

ولكن المكان الشاسع(*) يوحى بالكثير.. فالبيئة الصحراوية المتوفرة هنا – أو لنقل البدوية التى نشتق منها اسم البادية والبوادى – غنية بالكثير الذى يملأ النفس بالشاعرية، فالقراءة الأولى للمكان تعنى الرمال «الوفيرة» ولكن القراءة الأخرى تعنى التأمل فى هذا «المراح» والذى كان يوماً ما مسرحاً لخيام الارتحالات أو قرى الاستقرار، ومسرحاً آخر للعمليات: كان الاقتتال بين القبائل المتجاورة هو سيد الموقف، حيث كان العرب يعيشون حياة تقوم على أساس من سفك الدماء «حتى لكأنه أصبح سنّة من سننهم، فهم دائماً قاتلون ومقتولون.. وأحبّ قانون لديهم هو الأخذ بالثأر.. فهو شريعتهم المقدسة.. إذ كانوا يحرمّون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم».. حياة أشبه بالجنون.

وكانت الحياة الناجية من كل هذا تنهض على التساؤلات: لماذا يحدث كل هذا؟ ولماذا لم أمت هذه المرة؟ ومتى يحين موتى؟.. و.. و.. الكثير من الأسئلة المعلقة على رءوس الأفكار وعلى مداخل الدور.

نشأ زهير هنا.. بين كل هذا.. شهد الفرح بالانتصار.. كما رأى الشريفات اللواتى ينتقين أزواجهن والحرائر اللاتى يعملن فى الطهى، والإماء اللواتى يخدمن هؤلاء وهؤلاء ويرعين الإبل، كما شهد تدلل أبناء القبيلة على مواليها – عتقاءها – وعبيدها.. شهد زهير هذا النظام وعايشه مثلما تناهت إليه أخبار الحروب «السخيفة» التى تجرى فيها الدماء أنهاراً بسبب فرس أو حصان مثل حرب داحس والغبراء أو بسبب ناقة مثل حرب البسوس.

ولأنه وُلِدَ فى بيت شِعر..

ولأن الشعر بعض من إعمال الذهن (أو الفكر) والمخيلة، فقد تولدت لديه «أفكار» أخرى ترفض السائد وتقترب من الحكمة..

(*) فى وقت لاحق عدت للمكان وأتممت تصويره وخرجت منه بعدة موضوعات عن مدائن صالح ومسجد النبى صالح، ومحطة قطارات العلا العثمانية، وجميعها نشرت فى جريدة «الحياة» الدولية ومجلة «الوسط».

كان زهير يجتمع مع العشيرة حول خاله المُحْتَضر بشامة، الذى وزع على الجميع ما ترك من مال وإبل.. إلا زهيراً.. أعطاه ما هو أثمن: الشعر.. ومع الشعر حكمة السنين ومعهما مكارم الأخلاق وهو ما ظهر جميعه فى شعره فى فيما بعد..

ومات بشامة.. فرحل زهير.. عاد لأمه ليجد أستاذاً آخر للشعر: هو أوس بن حجر زوج أمه، وأبوه «الروحى» الثانى.. فتعلم زهير على يديه الكثير.. كما تفتحت أفكاره أيضاً على الكثير..

وذهب زهير إلى يثرب:

غشيتُ ديارا بالبقيع وثهمدِ دوارسَ قد أقوينَ من أمِّ معبدِ

والبقيع فى اللغة هو كل مكان فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وهو موضع فى المدينة المنورة يسمى بقيع الغرقد (والغرقد اسم لشجر شوكى ينبت فى هذا البقيع بكثرة) وهذا المكان هو مقبرة أهل المدينة المنورة وكان خارج المدينة قبل اتساعها، وبعد هدم سور المدينة أصبح داخلها، وقد ضم إليه فى العهد السعودى البقيع المعروف ببقيع العمات أى عمات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم..

ومن يثرب انطلق زهير إلى وادى العقيق بالمدينة المنورة الذى يقع فى بلاد مزنية (القديمة) أى عاد إلى أهله المزنيين، ومزنية القبيلة تنتسب إلى مزنية بنت كعب ابن ربوة وأم عمرو بن إد، إحدى جدات ربيعة – والد زهير – لأبيه..

ومع رحيل زهير إلى يثرب ووادى العقيق، عدت لاهثاً وأنا أردد طوال هذه المسافة (٣٥٠ كيلومتراً): «كم أتعبتنى يا زهير.. كم أتعبتنى يا أبا كعب..» ولكنه التعب الجميل.. التعب الذى تجد نفسك فى نهايته مشرفاً على الوادى العقيق الذى سكن التاريخ طويلاً..

يقع حوض وادى العقيق إلى الجنوب والغرب من موقع المدينة المنورة، ويقول عنه الباحث السعودى الدكتور حسين محمد القلاوى:

«يتميز حوضه بالاتساع فى أقصى الجنوب حيث يصل المحور العرضى شمال جبل الخنيقة إلى ما يقرب من ٥٠ كيلومتراً ويضيق اتساع الحوض تدريجياً بالاتجاه شمالاً ويصل امتداده الطولى إلى ما يقرب من ٦٠ كيلومتراً، وتحيط بحوض وادى

العقيق مناطق مرتفعة من الأرض، أهم ارتفاعاتها هى القمم التى توجد بمنطقة الجبال الجنوبية (جبل الخنيقة - جبل الصايغ - جبل الحنو وغيرها) ويمتد إلى الشمال منها حتى يصل إلى منطقة مجمع السيول التى يطل عليها من الشمال الشرقى جبل أحد ومن الجنوب والغرب جبل مخاريق، وعلى طول الطريق القديم من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة يبدو تكوين مخاريق وقد ميزته صخور الإندسايت البركانية دقيقة الحبيبات وذلك حيث يتداخل معها الجرانيت وردى اللون خشن الحبيبات وتتداخل فيها كافة القواطع والسدود البركانية الحديثة».

فى هذا الوادى متفاوت الأمطار والذى يتميز فى أجزاء من أراضيه بالخصوبة أقام زهير بعض الوقت (الذى يعنى هنا سنوات) أعاد فيه الصلات برحمه وعاد إلى الحرة الشرقية التى تمتد شرق المدينة المنورة ومعه زوجته الأولى ليلى التى كناها بأم أوفى فى معلقته الشهيرة:

أمِنْ أمِّ أوفى دِمنةٌ لم تُكَلَّمِ   بحومانةِ الدّراج فالمتثلّمِ

واستقرا فى حاجر، وهو موضع غربىّ النَّقَا (مكان على حدود يثرب القديم) إلى منتهى حرة الوبرة من وادى العقيق (الحاجر فى اللغة هو الأرض المرتفعة التى يتوسطها منخفض) والحاجر أيضاً ما يمسك الماء من شفة الوادى، وأنجب زهير من أم أوفى أولاداً ماتوا صغاراً.. وهنا نجد تحولاً فى أفكار الرجل وشاعريته.

يقول محمد يوسف فران: «ولكن حب زهير للذرية جعله يتزوج كبشة بنت عمار بن سحيم، أحد بنى عبدالله بن غطفان فولدت له كعباً وبجيراً وسالماً الذى لم يلبث أن مات فى حياة أبيه، وهو بعد فى ريعان الصبا، وكانت كبشة زوجته الجديدة ضعيفة الرأى، مبذرة، صلفة، فلقى زهير منها عنتاً شديداً، فأحب بعد عشرين سنة أن يعود إلى أم أوفى، لنبل فى أخلاقها وحسن معشرها، لكنها رفضت لأنه آثر غيرها عليها».

وقصة زواجه هذه من كبشة أو أم كعب - الشاعر المعروف فيما بعد - تحيلنا إلى أمرين: إما أنه قطع الفيافى مرة أخرى إلى الحجر موطن غطفان ليتزوج منها وإما أن آل غطفان أنفسهم قد ارتحلوا - وكان الارتحال عادة بدوية أصيلة - إلى الموضع

الـذى كان فيـه زهير، وأنه تزوج لا لحاجة فى الإنجاب وحسـب، بل ليرد دَيْن أخوالـه الذين احتضنـوه صغيراً، ونذهب إلى هذا الـرأى – أو هكذا نظن – لأنه اسـتقر فيما بعد فى أرض عبس وذبيان الواقعة فى بلاد القصيم. أو أنه كان قريباً منهـا أو أن الغطفانيين قد ارتحلوا إلى مكان قريب منها ومعهم زهير، لأن السـياق التاريخى و «المكانى» الذى تتحدث «فيه» المعلقة يشى بالكثير، خاصة علاقة زهير بمشـاهد أووقائع ما بعد الصلح بين عبس وذبيان – وهو غرض المعلقة الأساسـى والتى نظمها فى عامه الثمانين، وذاك من قوله:

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومَنْ يعشْ ثمانينَ حـولاً لا أبـالَكَ يسـأمِ

أما هذه الوقائع التى تثبت صلة زهير بأحداثها وبطلها الحارث بن عوف وهرم ابن سنان فنجدها فى شروح التبريزى للمعلقة إذ يقول.. كان ورد بن حابس العبسى قتل هرم بن ضمضم المرى الذى يقول له عنترة:

ولقد خشيتُ بأن أمـوتَ ولـم تكنْ للحـربِ دائـرةٌ علـى ابنـىْ ضمضـمِ

قتلـه فى حـرب عبس وذبيان قبل الصلح ثم اصطلـح الناس ولم يدخل حصينَ ابن ضمضم – أخوه – فى الصلح فحلف لا يغسل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجـلاً مـن بنى عبس ثم من بنى غالب، ولم يُطلـع على ذلك أحداً، وقد حمل الحمالة الحارث بن عوف بن أبى حارثة، وهرم بن سـنان بن أبى حارثة، فأقبل رجـل من بنى عبس ثم أحد بنى مخزوم حتـى نزل بحصين بن ضمضم فقال ممن أنت أيها الرجل؟ قال عبسـى. قال من أى عبس؟ فلم يزل ينتسـب حتى انتسب إلى غالب فقتله حصين، فبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سـنان فاشـتد ذلك عليهمـا، وبلغ بنى عبس فركبوا نحو الحارث فلما بلغ الحارث ركوب بنى عبس ومـا قد اشـتد عليهم مـن قتل صاحبهم، وأن مـا أرادت بنو عبس هـو أن يقتلوا الحـارث، بعـث إليهم بمائة من الإبل ومعها ابنه، وقال للرسـول قل لهم: اللبن أحب إليكم أم أنفسكم؟ وأقبل الرسول حتى قال لهم ما قال، فقال الربيع بن زياد: إن أخاكم قد أرسل إليكم: الإبل أحب إليكم أم ابنه تقتلونه؟ فقالوا بل نأخذ الإبل ونصالح قومنا.. وتمّ الصلح.

ومـا يدل علـى هذا التغيـير المكانى أو عـودة زهير إلى الحجر الـذى ولد فيه هـو «حومانة الدراج فالمتثلم» فالحومانة فى اللغة تعنـى المكان الغليظ المنقاد وقيل الحومان القطعة من الرمل وجمعها الحومان والحوامين، والدراج بفتح الدال وضمها، وحومانة الدراج والمتثلم – فى شـرح التبريزى: موضعـان بالعالية – والعالية هى منطقة بلدة العلا (الاسم الحالى).

ثم نعود إلى المعلقة «لنضبط» هذا المكان «الهارب فى أيدينا» حيث يقول زهير:

ديـاره لهـا بالرقمتيـن كأنهـا مراجيعُ وشمٍ فى نواشر مِعْصَمِ

قـال الأصمعى: الرقمتـان إحداهما قرب المدينة والأخرى قـرب البصرة ومعناه بينهما.

وقال الكلابى: الرقمتان بين جرثم وبين مطلع الشـمس بأرض بنى أسـد، وهما أبرقان مختلطان بالحجارة والرمل، والرقمتان أيضاً حذاء سـاق الغرو وسـاق الغرو جبل فى أرض بنى أسد، والرقمتان أيضاً بشط فلج أرض بنى حنظلة، وقوله مراجع وشـم يعنى ما رجع وكرر وفلان يرجع صوته أى يكرره، والوشم الخضرة والنواشر عروق ظاهر الذراع.

ويؤكد زهير عودته إلى الديار حين يقول:

وقفت بها من بعدِ عشرين حجّةً فلأياً عرفتُ الدارَ بعد تَوَهُّـمِ

أى إنه عاد بعد عشرين عاماً إلى المكان الذى ولد فيه وهو الحجر القريبة من بلدة العـلا، وهكذا يصبح المكان مؤكداً، لكن غير المؤكد هنا ارتحالات بنى ذبيان وبنى عبس ونقلهما «الصراع» بأكمله إلى مكان غير الذى بدأ فيه وهو ما يثير شكاً كبيراً، ولكن ما يدحض هذا الشك – أحياناً – مسألة طارئة عنّت لى، تقول أىُّ الشاعرين: عنترة العبسـى أو زهير تأثر بالآخر، وذلك بعد معايشـتى الكاملة للمعلقتين، وهو ما يطرح شكاً من نوع آخر فى ناحية الانتحال، أو فى ناحية حقيقة «نسب» معلقة زهير إليه، وهو نفس الشك الذى «حام» حول معلقة عنترة.

فى الناحية الأولى لابد لنا أن نلحظ أن قافية المعلقتين واحدة وهى الميم المكسـور آخرها، بالإضافة إلى التوحد اللغوى الذى يشيع فى المعلقتين مثل قول عنترة:

هـل غـادر الشـعراءُ مـن مُتَردمِ أم هـل عرفـتَ الـدارَ بعـد توهمِ

يقابله قول زهير:

وقفت بها من بعدِ عشرينَ حجةً فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توّهـــم

وفى معلقته يقول عنترة:

يا دار عبـلة بالجـواءِ تكلمـى وعمِى صباحاً دارَ عبلةَ وأنعمـى

يقابله قول زهير:

فلما عرفت الدار قلتُ لربعهـا ألا أنعِمْ صباحاً أيها الربَّعُ واسلم

وغير ذلك الكثير من المشابهة اللفظية والأدائية فيما بين المعلقتين، لكن الأهم من ذلك: مَنْ تأثَّر بالآخر، أو مَنْ سبق الآخر فكان قصيده هو المؤثر.

إذا كان عنترة قد توفى – أو قتل – قبل الهجرة النبوية بخمسة وثلاثين عاما، وتوفى زهير قبل عام ٦١٠م أى قبل هجرة الرسـول بعشـرين عاماً – والهجرة كما نعلم حدثت عام ٦٢٢م – فهذا يعنى أن عنترة أسبق وأن زهيراً أخذ عنه وهو ابن ثمانـين عاما، وهو ما يشـير أيضا إلى أنه عاش بقية عمـره بين بنى عبس وذبيان أو قريباً منهم بالشكل الذى يوحى بوجود علاقات مباشرة بين الاثنين، ولا نعرف بالتالى بأى حق جاء تصنيف أو ترتيب زهير فى سـياق المعلقات بعد امرئ القيس الذى يقال: إنه أبو الشعر العربى «الحديث» فى الجاهلية باعتبار أنه أول من وزن الشعر باللغة العربية التى نفهمها لا باللغة الحميرية القديمة.

أمـا الناحيـة الثانية وهى المهمومة بالانتحال فقد جاء فى ذلك الكثير بالنسـبة لزهير أهمها ما حاول تأكيده الدكتور طه حسين والبحاثة المستشرقون جولد تسهير ومرجليوث ثم الأب شـيخو من أن جمع الشـعر الجاهلى بدأ فى القرن الثانى فى الهجـرة وأن أهم مـن جمعه حماد الرواية وخلف الأحمر وأنهما أضافا أبياتا كثيرة إلى الشـعراء الجاهليين، وبالتالى شاعت فى هذه الأبيات المدسوسة اللغة الإسلامية القرآنية أو المفاهيم الإسلامية والتى نجد منها الكثير فى شعر زهير ومنها:

تـزوَدْ إلى يـوم الممات فإنـــه ولـو كرهتـه النفس آخـر موعدِ

أو قوله:

فلا تكتمنَّ الله ما فى نفوسكم ليُخفى، ومهما يُكْتَم اللهُ يعلم
يؤخر فيوضع فى كتابٍ فيدّخر ليوم الحساب أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

وغيره الكثير، وكان مبلغ تحفظهم من أن مثل هذه الأبيات مدسوسة على القصيدة الأصلية – التى انتقلت بطريق شفهى وليس عن نص مكتوب – لأن الجاهلى لم يكن يؤمن بوجود «الله» وحتى فى استخدام الجاهلى لمثل اللفظ كان يقول الإله، أما بالنسبة لعدم كتمان ما فى النفوس فإنهم ذهبوا إلى سقوط مزيفى الأبيات فى الخطأ ولأنهم مسلمون (أى خلف الأحمر وحماد الرواية) فإنهم متشبعون بالقرآن ومنه آية: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦]. وهى الآية التى يفسّرها البيت الشعرى بهذا النحو، أما المسألة الأخرى فقد اعتمد هؤلاء المستشرقون والبحاثة على أن العربى الجاهلى لم يكن يؤمن – أو على الأقل لم يكن يعلم – بالبعث والحياة الأخرى بعد الممات أو «يوم الحساب» بالتعبير الإسلامى، فعلى أى شىء ارتكز منتحلو شعر زهير ليوهمونا بأن القصيدة – بكامل أبياتها – له.

أما ما يمكن لنا قوله رداً على مثل هذه الآراء التى تصور الجاهلية وكأنها كانت تعيش فى حالة خواء روحى، فإن ردنا يكون من خلال سرد مظاهر هذه الحياة قبل البعثة النبوية الشريفة.

فمن المعروف السائد أو الذى اعتدنا عليه أن الحياة الدينية الجاهلية كانت تقتصر على عبادة التماثيل ولعل أشهرها اللات والعزى، وهو ما يمثل جانباً ضئيلاً فى مجموع هذه الحياة الروحية على أرض جزيرة العرب، التى كانت دائماً مفتوحة الأبواب لشتى الصور الروحية وكانت قوافلها التجارية والتى من أشهرها قوافل «الشتاء والصيف» تتجه شمالا إلى حيث البلدان الأكثر استقرارا وتحضرا مثل الحيرة فى جنوب العراق وبادية الشام وغيرها من أمصار ذلك الزمان، ويذكر التاريخ الجاهلى ذاته أن كثيراً من ناسه كانوا «موحّدين» حنفاء يبنون الحياة بخاصها وعامها على أساس الأخلاق الكريمة ويعملون بأمر العقل فينفذون ما يأمر

به وينتهون عما ينهى عنه.

ويقول محمد يوسف فران «أيضا» أن من هؤلاء الأحناف: ورقة بن نوفل وزيد ابن عمرو بن نفيل وخالد بن سنان العبسى وحنظلة بن صفوان، وقس بن ساعدة الإيادى، وعامر بن الظرب العدوانى وزهير بن أبى سلمى، وعبيد بن الأبرص، وأمية ابن أبى الصلت، والنابغة الجعدى الذى يقال: إنه أنكر الخمر فى الجاهلية وهجر الأوثان والأزلام.

والحنيفية أو الدين الحنيف هو دين أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذى جاء على ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠].

ونجد الصابئة إلى جانب الموحدين، وهؤلاء كانوا يعبدون الكواكب ويعتقدون بالأنواء، وأول من دان من العرب بذلك قبائل سبأ الحميرية إذ إنهم كانوا يعبدون الشمس، وكانت كنانة من عبدة القمر، أما بنو جرهم ولخم فقد كانوا يسجدون للمشترى، وأما قريش فقد عبد أبناؤها الشِعْرَى بدليل بعض أسمائهم فى ذلك: عبد شمس.

أما اليهودية فهى دين موسى عليه السلام، نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل الذى تناسل منه أكثر ملوك تلك الطائفة، و «تُبَّع» الأصغر هو الذى أدخل اليهودية إلى اليمن، ومن اليهود الذين نزلوا المدينة بنو قريظة وبنو النضير، ومن دان باليهودية من العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب، ولعل هذه الديانة سرت إليهم عن طريق مجاورة اليهود فى تيماء ويثرب وخيبر.

وأما النصرانية فهى دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، نسبة إلى الناصرة أول قرية بث فيها المسيح دعوته مبشرا بدين الله، وقيل إن القديس لوقا هو أول من دعا إليها فى بلاد اليمن أثناء سيره إلى الهند، وبولس الرسول أول من دعا إليها فى الشام وبره، وأشهر من تنصر من العرب بنو غسان، وقضاعة وتنوخ وتغلب وطئ وحِمْيَر، إضافة إلى انتشار المسيحية فى جهات شتى بالحيرة فى العراق ومن هؤلاء فى الحيرة عدىّ بن زياد العبادى.

أما الوثنيون فكانوا الأكثر من العرب، فقد عبدوا الأوثان زاعمين أنها تقربهم إلى الله زلفى، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴿٣٨﴾﴾

[سورة الزمر: الآية ٣٨]. قال الزمخشرى: «بلغ عدد الأصنام حول الكعبة ثلثمائة وستين صنما» والدلائل تشير إلى أن الوثنى على العموم لم يكن يتمسك فى تدينه بعقيدة ثابتة نابعة من شعور عميق، إنما هى عادات تأصلت في نفوسهم تقليدا لغيرهم وتمسكا بسلوك آبائهم: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[سورة الزخرف: الآية ٢٢].

وعليه يكون زهير بن أبى سلمى بريئا من صفة النحل والانتحال وأن ما جاء فى شعره من مشابهة لتعاليم إسلامية إنما ينبع من كونه حنيفيا وهو ما تدل عليه أخلاقه الكريمة وآدابه الخاصة والعامة ونبذ الاقتتال وكراهته، وسعيه لإشاعة روح المودة والتآخى بين القبائل بما أورده من مدح لهرم بن سنان والحارث بن عوف وهو ما يظل مؤثرا فى العقلية الجمعية التى اتفقنا فيما سبق على احتفاليتها الدائمة بالقصيدة لدرجة أن العرب احتسبوها ديوان حياتهم أو كتابهم التاريخى فى وقت من الأوقات..

عاش زهير طويلاً وعمَّر في الأرض حتى وصل إلى ما يقرب من التسعين عاماً وظلت الأماكن التى عاشها تتغنى بقصيدته «المعلقة» ولكن أجمل ما قيل فى شعره خاصة ما هو فى غرض المدح:

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابنة زهير:

«ما فعلتْ حُلل هرم بن سنان التى كساها أباك؟!

قالت: لقد أبلاها الدهر..

قال: لكن ما كساه أبوك هِرماً لم يُبْلِه الدهر»...!!

.. .. وجمعت أغراضى مستعدا للرحيل وأبيات زهير تُظللنى وكأنها كتبت تواً ومن واقع «الحال» الذى أنا فيه:

تأوّبنى ذكر الأحبة بعدما ... هجعتُ ودونى قُلة الحزنِ فالرملُ

فأقسمت جهداً بالمنازلِ من مِنىً ... وما سُحِقَتْ فيه المقادمُ والعَمْلُ

لأرتحلنْ بالفجرِ ثم لأدأبنْ ... إلى الليل إلاّ أن يُعَرّجنى طِفلُ

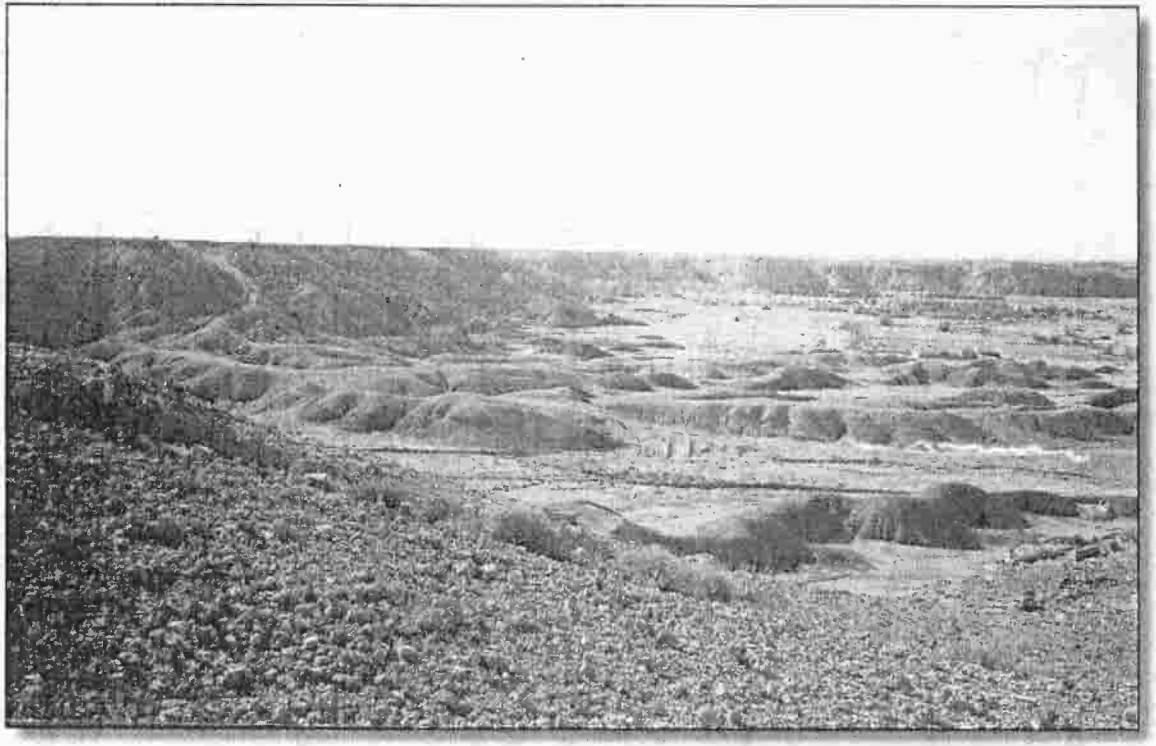

منظر عام لوادى العقيق حيث أقام زهير بن أبى سلمى فترة من حياته فيه.

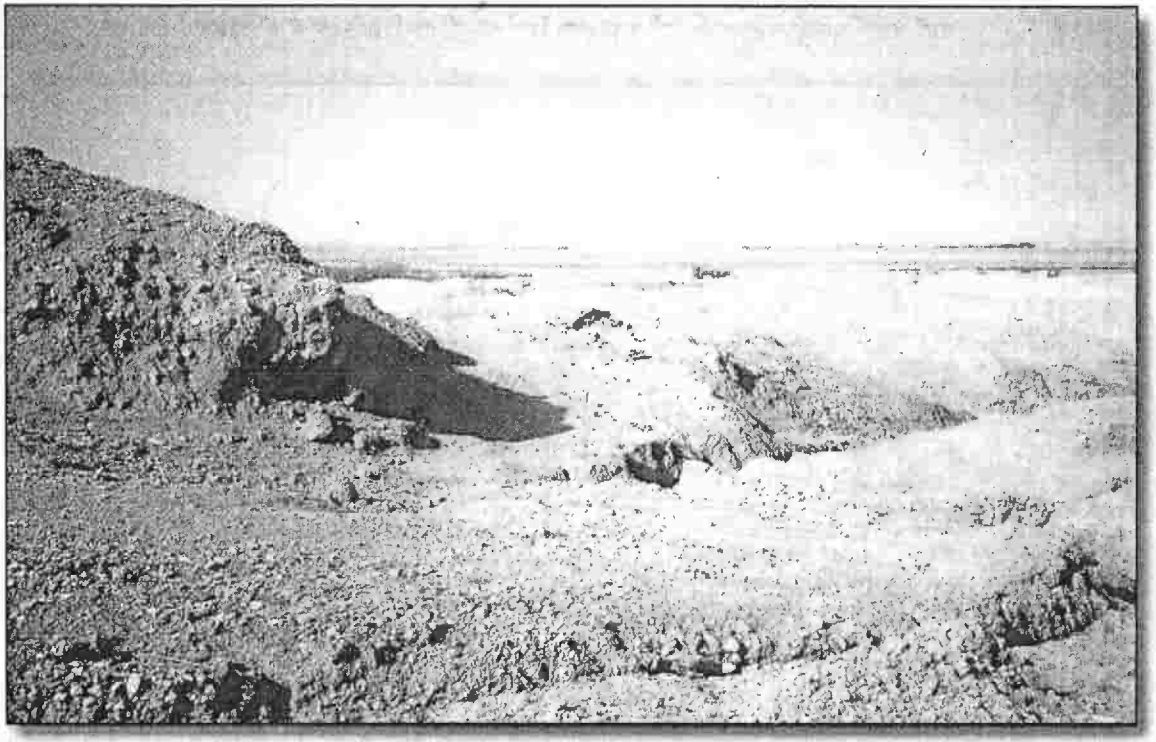

جانب من وادى العقيق.

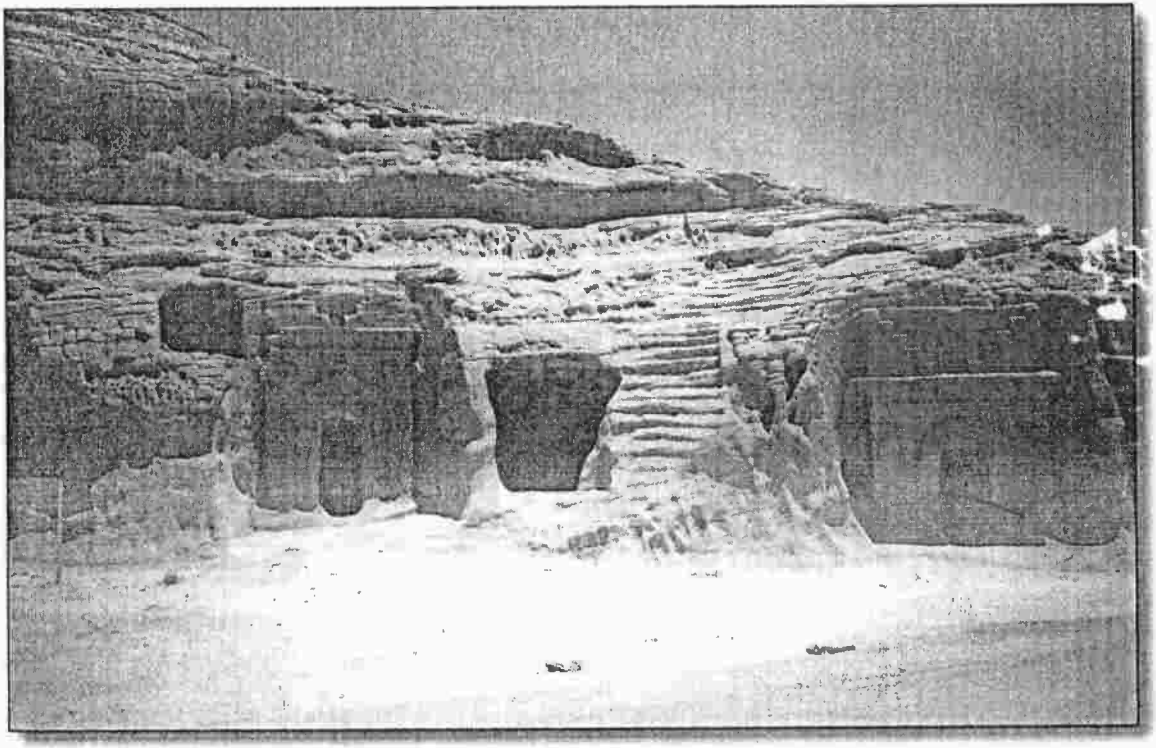

منظر جانبى لأطلال مدائن صالح التى عاش فيها زهير بن أبى سلمى فترة أخرى من حياته.

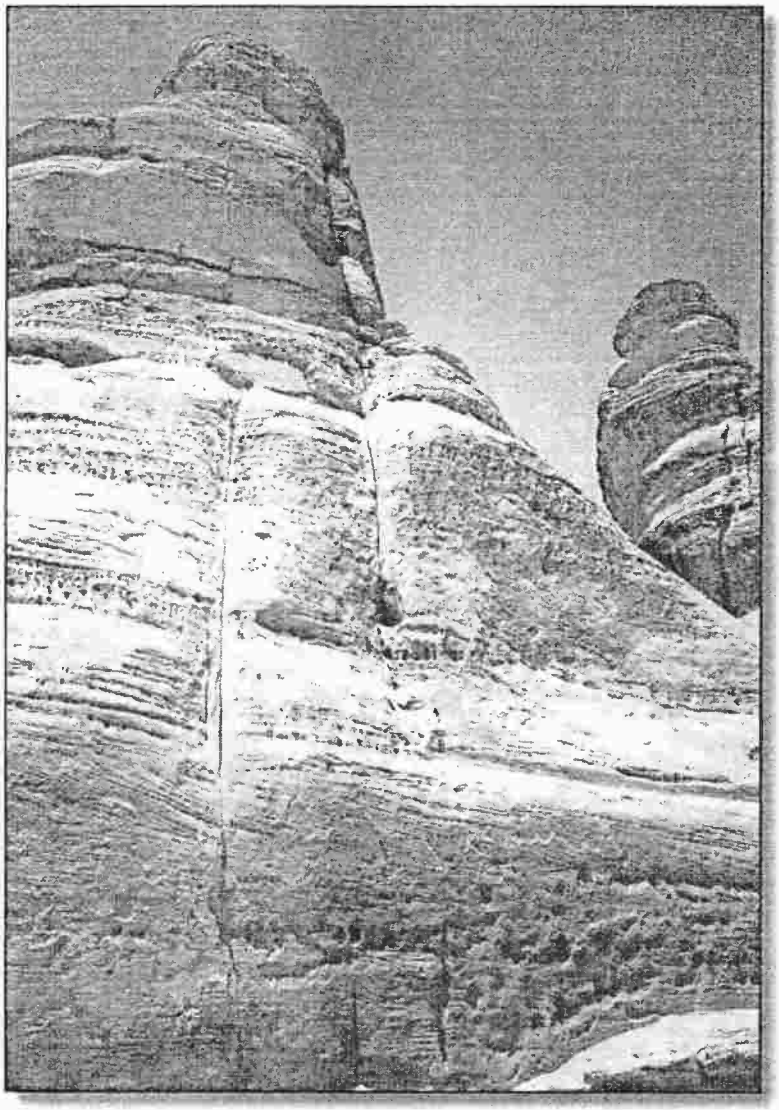

الجبال المحيطة بمدائن صالح.